

اصول التعليم الحديث

تمهيد

خضع التعليم لناموس الارتقاء العام كما خضع الانسان والعلم والتقدم فقد مرت عليه ادوار تدرج في اثنائها من ابسط حالاته الى ما هو اعلى الى ان وصل اليها هو عليه في هذه الايام . فانزاه اليوم في المدارس والكليات والجامعات من اصول التعليم الزايقية ليس اين يومه بل هو نتيجة ابحاث ومجادلات اشتغل بها العقل الانساني منذ ابتداء التمدن الى اليوم ولما كان تاريخ التعليم من الاهمية بمكان وكان على كل من اخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة ان يقف على ذلك رايت ان آتي على تاريخ التعليم الحديث مع القاء نظرة عامة على تاريخ التعليم من اول امره مستنفاً في كل ذلك على ما كتبه كبار علماء التهذيب الذين هم العمدة في هذا الباب والكتابة التي يمحج اليها كل من اراد التوسع في هذا الموضوع (١)

لقد قسم العلماء ازمته تاريخ التعليم الى ادوار فسماوا الدور الاول منها بالتعليم الابتدائي وهو لا يتجاوز حد « التقليد » كتقليد الصغار حركات من هم اكبر منهم سناً . وهذا الدور هو الممثل عليه في كل امة لتعليم الاطفال غيران المتوحشين الذين لم يكن عندهم مدارس انصروا عليه ولم يزدوا شيئاً

واتمد مضى زمان كانت فيه هذه الطريقة ارق طرق التعليم اذ كانت الطريقة الوحيدة المعروفة ولكن ذلك لم يلبث طويلاً حتى قام اناس من بين المتوحشين يعرفون اشياء لا يعرفها باقي اخوانهم ككلمات رمزية او اشارات تبعد الارواح الشريرة ولما راوها نافعة لم لم يهوجوا بها الا لا قاربهم واهلهم وهو لاهم الافراد الزاقون او الكهنة الذين زادوا عليها الطقوس والرسوم وصاروا هم المعلمين وصارت بيوتهم المدارس فكان التعليم اذ ذاك محصوراً في فئة قليلة من الناس لا يتعداها الى سواها . فتقويت هذه الفئة وقيدت افكار الناس ولبت بهم كما شاعت مستندة في كل ذلك على السحر والكهانة والشعوذة

لما ارتقى الانسان وابتدأت تتألف الجماعات وسنت بعض النظامات السياسية ووضعت الحروف المعجائية واللغة الكتابية ظهر ان للفرد اعتباراً وشأناً خاصاً اذ من تتألف الجماعات

(١) قد حوّلنا في كتابة هذا المقالة على كتب أكثرها انكليزي منها

- (1) The Cyclopedia of Education. (Monroe)
- (2) History of Education & Source Book (Monroe).
- (3) Davidson History of Education.
- (4) Horn's Philosophy of Education.

وظهر ان الجماعة يجب ان تعرف ماضيها وتستفيد من اغلاطها وتسمى وراء كل واسطة لحفظ
 كيانها . فقام التعليم الشرقي وكانت الضاية مصروفة فيه الى الامور الآتية (١) حفظ اللغات
 واصطلاحاتها (٢) تعليم الانسان نوعاً مخصوصاً من التعاليم السرية (٣) السطط على الامة
 بذلك . ولكي تبنى لم هذه الامور وضعوا زمام التعليم في يد فئة قليلة من الكهنة الذين اتقوا
 القراءة والكتابة وعرفوا كل النظم والنظامين المنسرفة . لكن ظهر تقصير التعليم الشرقي في
 اربعة امور (١) التشديد في اهمية اللغة (٢) تكريم الماضي (٣) عبادة الاسلاف (٤) تقييد
 شخصية الفرد بشخصية الجماعة . فترتب على ذلك النتائج التالية (١) اخضاع العقل للسلطان (اي
 اللغة) (٢) الخطف من شأن الحاضر . فابتدأ العقل الشرقي حينئذ يهتلي فردوساً بعد الموت وجنة
 بعد الانتال من هذا الشقاء فكانت تراه تارة يشد الاشعار مغترماً بماضيهِ واخرى ساجداً في
 ليلج الفلسفة مفكراً في مصيرهِ ولكن قلنا كان بهم باسلاح حاضرهِ (٣) عدم الاعتماد على النفس

التعليم اليوناني

كان التعليم الشرقي الذي بدت نتائجه على اوضح حالاتها في الصين مبنياً على اخضاع
 الفرد والسطط عليه . ثم قام التمدن اليوناني فاجتهد اليونان ان يحرروا الانسان من كل تسلط
 غير مشروع وبقوا فيه عاطفة الفردية فيعرف نفسه انه كائن حر وان ليس لاحد ان يحرمة
 هذه الحرية . وقبل الوصول الى هذه الغاية تطلب العقل اليوناني في ادوار كثيرة . ولم يتم
 ذلك لليونان الا بعد اغتلاطهم بالشعوب الاخرى فاحذوا يتبدلون نظاماتهم القديمة
 باخرى ارق منها ترفع من شأن الفردية . ولذلك كان من أهم فلاسفة اليونان المتأخرين وعلى
 الاخص سقراط وافلاطون وارسطوطاليس ان يوفقوا بين القديم والحديث وان يضروا اصولاً
 موافقة للتعليم فكانت نتيجة ذلك ان وضعت المبادئ التي بنى عليها العلم الحديث نظاماتهِ
 وفوائده . وبقى الميل الى ثورية شأن الفرد الى ان داسته اقدام الرومانيين

التعليم الروماني

مال فلاسفة اليونان الى الفلسفة النظرية نهاموا في عالم التصورات . اما الرومان فكانوا
 امة عملية فتقوا التعليم العملي وجعلوا مقياس صلاحية الشيء ومنفعة وتأثيره ولهذا نظروا الى
 اليونان كامة ذات احلام ورؤى كما ان اليونان نظروا الى الرومان كامة بريرة اعتمدها على
 القوة وليس فيها شيء من الشعور والتصور . وجعل الرومان البيت المدرسة الاولى منشأ التربية
 والعلم فيه لتأسس الفضيلة ونشأ التربية الصحيحة . ولما كان جل اعتماد اليونان على الفلسفة
 النظرية لم يكن للعامة من شأن يذكر في امر التعليم بل بنى العلم محصوراً في طبقة مختصرة منهم

بمخلاف الرومان فقد كان لكل فرد من افراد الامة حظ وافر منه. وزها العلم وتقدم لما عظم شأن الرومان. ولكن لما اخذت الامبراطورية في الانحطاط وسرى السم في جدها وتسلط البرابرة على القسم الغربي منها تأخر العلم تأخراً عظيماً وانحطت اخلاق الامة وفسدت تربيتها ولقد ظهرت آراء الرومانيين في التعليم في ما سئوه من الحقوق والواجبات فكان للروماني خمسة حقوق بحسب ما سئوه الشريعة الرومانية . (١) حق الولد على والده . (٢) حق الرجل على امرأته . (٣) حق السيد على عبده . (٤) حق الحر على آخر في احواله تبيها الشريعة . (٥) حق الرجل على املاكه . فكان الخريمال هذه الحقوق بالولادة . وبعد القرون الاولى من تأسيس رومية صار الانسان يناها اذا تبتاه رجل حرا و نال الجنسية الرومانية

التعليم في القرون الوسطى

بعد ان استوى الملك قسطنطين على عرش المملكة الرومانية صارت الديانة المسيحية ديانة الحكومة الرسمية وانتشرت في كل المملكة و بعد ان كانت السلطة في يد الحكومة اخذت تسرب شيئا فشيئا الى يد الكنيسة حتى صارت هي المرجع الاعلى في جميع الشؤون المدنية والكنسية . واخذت التعاليم الوثنية تنقلص امامها لانها جاءت بتعاليم جديدة روحية وهديب حقيقي ثقلي الامر الذي لم يكن يتحقق في التعاليم اليونانية والرومانية . وكان في وسع كل رجل ان يتال حفظاً وافرأ من هذا التعليم لانه كان مبنيأ على الادبيات لا على العقل والذكاء كما كان عند اليونان . ولقد كانت الديانة المسيحية في اول نشأتها على اتفاق تام مع التعليم المدرسي ولكن لما امتدت سلطتها الى جميع الافطار جعلت تفكر كل شيء وحرمت الانسان من التوسع في البحث والتعليم . فقام الزهبان وقصروا الجانب الأكبر من اوقاتهم في المطالعة والدرس والكتابة والتأليف . ولما احتاجوا الى المعادلات الدينية رأوا ان لا بد لهم من طم المنطق والفلسفة وهكذا نشأت الفرقة المعروفة بالمدرسين . ثم لما تولد في اوروبا النظام الاقطاعي ورأى الناس انفسهم مضطرين الى حمل السلاح اخذ التعليم يتكيف بصورة اخرى فشاء التعليم المدعو بالتعليم العسكري وهو ان يمرن الانسان نفسه على الشجاعة والقومية ليتمكن من انجاد سيده وقت الحرب . وبعد ان انقضى القرن الثالث عشر ظهرت التعاليم بظهور جديد وكماها ترمي الى الضغط على العقل والحربة

زمن الاصلاح — هدم التقدم ومحاولة البناء على اساس فلسفي

تقدم القول ان التعليم في القرون الوسطى كان يرمي الى الضغط على حرية الافراد والعقل فقيام النشأة الجديدة محاربة هذا الميل كان نتيجة طبيعية . ولقد وقف ابطال هذا

الدور حياتهم على محاربة سلطة الكنيسة والحكومة ونظام الهيئة الاجتماعية التسيب ولدته القرون الوسطى . اما القبايات التي وجهوا نظارهم اليها سيفي كل تعاليمهم فهي (١) حقيقة الحياة فوافقت آراؤهم في ذلك اراء فلاسفة اليونان الذين اعاروا هذه المسألة جانباً عظيماً من الالهمية بخلاف ما كان عليه قادة الافكار في القرون الوسطى . (٢) عالم التصورات الداخلي والفرح في الحياة واللذة في المعيشة واعطاء الجلال حقه من الالهمية . وبدعي انهم لم يكونوا ينظرون الى ذلك من الوجهتين الدينية والفلسفية بل من الوجهة العالمية . (٣) الاشتغال بالامور الطبيعية فادت الاولى الى درس آداب اللتين اليونانية والرومانية والثانية الى اتقان الخمر والنقش والتصوير والثالثة الى الاكتشافات الجديدة . وخلاصة القول ان دور النشأة الجديدة وضع اساس التهذيب كانه في اليوم وليست الادوار الثلاثة الآتية الا تمكلة له . اما ام رجال هذا الدور فهم بتراركس ويوكاتشيرو في ايطاليا . ويوحنا ويريدولف ويوحنا ركلين في المانيا ورئيس هذه النهضة الاكبر اراسموس

دور الاصلاح

يختلف الدور السابق عن هذا الدور بوجه وتيجو . وما الاصلاح الا نتيجة امتداد النشأة الجديدة في شمال اوربا حيث اجتهد المصلحون في اصلاح الكنيسة والهيئة الاجتماعية من الوجهة اللاهوتية . ويمهد بنا ان نذكر بعض الفروق بين الشعوب اللاتينية والجرمانية للمعرفة بالطوطونية . فاللاتين كانوا يميلون الى درس الآداب الوثنية والجرمان الى درس الآداب المسيحية . اولئك اهتموا بالتهذيب الشخصي وهو لاه بهتذيب المجتمع دينياً وادبياً . كان تمدن اللاتين مبنيّاً على التقاليد وتمدن الجرمان على الديانة المسيحية . عقل هؤلاء كان ميالاً الى الدين وعقل اولئك كان يسى وراء المنفعة الذاتية . لذلك لم يكن ابتداء الاصلاح في المانيا ومعاودة ملوكها للمصلحين بالامر القريب

اما ام ابطال الاصلاح فهم يوحنا كالفينوس (١٥٠٩ - ١٥٦٤) كان منهمكاً في حياته بالمجادلات اللاهوتية ولم يهر التعليم جانباً من الالهمية الا في السنين الاخيرة من عمره يوحنا زونكلي . (١٤٨٤ - ١٥٣٢) . اعظم المصلحين في سويسرا . قوى التعليم الاجدائي . وكتب كتاباً في كيفية تربية الاولاد في الديانة المسيحية

مرتينيوس لوثيرووس (١٤٨٣ - ١٥٤٦) اعظم المصلحين بلا جدال ومصدر النهضة الالمانية . انحصرت نهجته في ثلاثة وجوه . ضد الحكومة - ضد الكنيسة - ضد التعليم الكنسي . والى القراءات من اقواله في وجوب التعليم . « هب ان لا روح ولا معاد ولا جهنم

فهذا لا ينبغي ان التعليم ضروري لقضاء الحاجات على الارض كما قال بذلك فلاسفة اليونان والرومان . العالم في احتياج الى رجال متعلمين ليسوا بالبلاذ بالعدل والحكمة والى نساء متهذبات يربين اولادهن التربية الحسنة ويمتحنن بامور يوثقن . انا اكره المدارس التي يقضي فيها التلميذ عشرين او ثلاثين سنة في تعلم امور لا اهمية لها . ان علماً جديداً قد اشرق علينا وقد ليس كل شيء ثوباً جديداً فانا ارى ان يرسل الولد ساعة او ساعتين في النهار الى المدرسة ويقضي بقية يومه في البيت يعمل صناعة لان الصنائع والعلوم يجب ان تسيرا جنباً الى جنب .
وقد علم ان الحكومة يجب ان تلزم الاهالي بارسال الاولاد الى المدارس كما انها تلزمهم بتأدية الخدمة العسكرية

فيليب ملانكشون (١٤٢٩ - ١٥٦٠) دُعي بملم المانيا ولم يطلق عليه هذا اللقب اعتباطاً اذ لم تبقى مدرسة في المانيا الا وانبت خطته في التعليم او مشورته في القاء الدروس ولم يتم معلم مشهور الا واحد عنه . وقد اَلت كتباً مدرسة كثيرة كان يعتمد عليها في المانيا مدة طويلة . فالتعليم الابتدائي اذاً مديون للاصلاح

الدور المعروف بدور الفلاسفة الحقيقيين (اي المذهب القائل بحقيقة الاشياء) كانت الحركة في القرن الخامس عشر شخصية وتشقيفية . وظهرت بالكتابات والحركات العسكرية . وفي القرن السادس عشر اصلاحية وادبية فظهرت في الدين والاجتماع . وفي القرن السابع عشر اتجهت نحو الفلسفة والمسائل العلمية ولذلك يمكننا ان ندعو هذا الدور بالدور العلمي

انقسم العلماء في هذا الدور الى قسمين الاول العلماء الحقيقيون المختصون بالعلوم الاديوية اهمهم اراسموس وملانكشون والثاني الحقيقيون الاجتماعيون وهؤلاء قللوا من اهمية المدارس وجعلوا اهم وسائل التعليم الارتمحال في الارض والمعاشره والاجتماع مع الناس ورائع علم هذا الرأي مونتانيه . وقد ظهر في هذا الدور فرنسيس باكون (١٥٦١ - ١٦٣٦) واضع الفلسفة الحديثة وهادم اركان الفلسفة القديمة . ولقد علم هذا الفيلسوف ان العلم لا يقوم بحفظ القواعد الصرفية والتجريبية واستظهار بعض الكلمات ولا بالعلوم اللاهوتية بل بالعلوم الطبيعية فهي وحدها يجب ان تسود في الكون واليهما يجب ان ترجع الفلسفة . فباقواله هذه فتح باباً جديداً ومهد مبيلاً واسعاً للاكتشافات التي حدثت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ولف كانك رنك (١٥٧١ - ١٦٣٥) كتب هذا العالم لمثل الملكة الالمانية في
فرتكفورث ما يأتي :

« استطع ان اعلم اللغة اللاتينية واليونانية باسلم بي الجديد في مدة قصيرة فيتدرب فيها التلميذ احسن مما يتدرب في مدارسنا الحاضرة . يجب ان تكون اللغة العامية - اي الوطنية - اساس كل علم ويجب ان يعلم التلاميذ الصنائع مع العلوم . يجب ان تسود في المنهاج لغة واحدة ولهجة واحدة لاغير . » ولكن هذا العالم لم يصادف النجاح التام في حياته اما مؤسس تاريخ التعليم الحديث فهو يوحنا عاموس كومنيوس (١٥٩٢ - ١٦٧٠) ويمكننا ان نجمع آراء هذا الفيلسوف بالتعليم في هذه الخلاصة

« اتقصد من التعليم هو التمتع بالسعادة التامة وهذه بناها الانسان بقوة الارادة ومعرفة النفس وبالتالي معرفة كل شيء . » وقال في التعليم ما يأتي :

« يجب على الانسان ان يفقه العالم جيداً ويضع كل قسم في مكانه دون اختلاط ولا امتزاج . » ولذلك ترى كلامه في كل كتيبه المدرسية اخذاً بعضه برقاب بعض . ويجدر بنا ان نذكر القضايا التسع التي وضها هذا العالم في التعليم

- (١) كل ما يجب ان يُعرف يجب ان يُعلم صريحاً للتلميذ لا بالرموز ولا بالامثال
- (٢) يجب ان تلقى الدروس على طريقة تفهيمها من الانهاج وليس على طريقة معقدة صعبة
- (٣) كل ما يُعلم يجب ان يكون ذا نفع ومن الاشياء التي يستعملها التلميذ كل يوم

والرافعة تحت حواسه

- (٤) كل ما يُعلم يجب ان يعلم بالرجوع الى طبيعته الحقيقية واصله اي بواسطة

اسبابه وعقله

- (٥) يجب ان تقدم مبادئ الاشياء العمومية في التعليم على التفصيلات والشروح الطويلة
- (٦) كل شيء يجب ان يعلم مبتدأً من رتبته ومركزه وعلاقته بالاشياء الاخرى
- (٧) يجب ان تعلم كل الاشياء بالتعاقب ولا يجوز ان يعلم اكثر من شيء واحد

في وقت واحد

- (٨) يجب ان لا يترك المعلم شيئاً قبل ان يفهمه التلميذ جيداً
- (٩) يجب ان يدقق تمام التدقيق في الفروق التي ترى بين الاشياء لكي تكون المعرفة

حقيقية واضحة

وقد اشهر هذا المعلم ايضاً بما وضه من الكتب المدرسية حتى انها كانت الغاية في هذا الباب وفاقته كل كتب الذين تقدموه وعاصروه . والسبب في نجاحه انه كان معلماً فكتب ما كتب عن اختيار واستفهام . وقد ذكر انه يجب ان تكون المدارس نوعين

(١) مدرسة الاطفال . فكأنه اشار بذلك من طرف خفي الى بستان الاطفال (كثركارمن) كما صيحي (٢) المدرسة العمومية . ولم ينس واجبات الامهات فكتب كتاباً مهماً في التربية الدور المعروف بالتمرين

كانت اهمية هذا الدور قائمة بامور ثلاثة - (١) ان العبرة ليست بالمواضع العلمية التي يتلقونها التلميذ بل بالطريقة التي نلقي بها . (٢) ان الاسلوب الصحيح يرقى القوى العقلية الى درجة تستطيع بها ان تفهم المواضع فيما صحبها . (٣) ان العقل مركب من قوى كثيرة اهمها الذاكرة والادراك وان هاتين يجب ان ترقيا بواسطة التمرين العلمي . وقد صادفت هذه النظريات فيولاً من كل العلماء ولا يزال كثيرون منهم الى اليوم يؤيدونها بأرائهم اما مثل هذا الدور فهو يوحنا لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) . كانت غاية هذا الفيلسوف في حياته محبة الحق فقد قال ان الدليل الى الحق وكل عمل في الحياة هو الادراك القائم على التمرين العقلي . وقد وافقنا باكون ايضاً في ان كل معرفة تأتي من الاختبار . ولم يكن التهذيب عند لوك سوى عمل عقلي نكته العادة بواسطة التمرين وهذا لا تقوم به الكتب وحدها بل يلزم له التأمل والافتكار العميق . وقد ذكر في موضع اخر من كتاباته ان القصد من التعليم هو الفضيلة والحكمة

وقال « ان العقل السليم في الجسم السليم » . فبعثاً يحاول الانسان ان يرقى عقله مادام جسمه معتلاً واذا كان الجسد يستطيع ان يجعل المشتات فالمقل لا يستطيع ان يجمعها » وقد وضع اساس الفضيلة والاستحقاق في هذه الكلمات « ان يكون الرجل قادراً على انكار نفسه وشهواته ويتبع ما يرشده اليه عقله ولو قادته معدته الى غير ذلك وهذا لا يقوم الا بالسعادة وبالتمرين ولذلك رأى ان يمنع الاولاد من رضائهم وهم في المهد وأن يعلموا انهم لا يعطون شيئاً لمجرد رغبتهم فيه بل لانه موافق لهم » . وقد ذكر ان الغاية من التعليم ان يوهل الشاب عقله لفهم كل ما يلقي اليه من العلوم لا ان يتقن عملاً واحداً فقط . اما اهم العلوم التي يجب ان يتلقاها التلميذ فهي الرياضيات لانها تمرن العقل . وقد قال في هذا الشأن « نحن خلقنا لتكون اذا اردنا مخلوقات مفكرة ولا يودى الى ذلك الا العمل والتمرين . وقد خصصت بالذكر الرياضيات لانها واسطة للتمرين والممارسة . وبواسطتها يتأهل العقل لفهم كل العلوم التي يشتغل بها »

هنا انتهى تاريخ التعليم القديم وسنأتي على تاريخ التعليم الحديث

بولس شحاده